تاريخ الشرق الأدنى القديم
(١١)

Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

تاريخ العرب القديم

دكتور
محمد بيومي مهران
أستاذ التاريخ القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

[redacted]

١٩٨٨

دار المعرفة الجامعية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وآله .

تقديم

لعل من الأمور الغريبة أن المؤرخين الإسلاميين قد انصرفوا عن التاريخ العربي القديم ، إلا أن يكون مقدمات لتواريخهم المفصلة الدقيقة للعصور الإسلامية ، وحتى هذه المقدمات لم تكن مفصلة ولا دقيقة ، وربما كان السبب في ذلك أنهم لم يعتمدوا فيما كتبوه على سند مدون ، أو مأخوذ من نص مكتوب ، وإنما كان عمادهم في ذلك أفواه الرجال ، وهو أمر لا يمكن الإطمئنان إليه ، ذلك أن رواة الأخبار ، حتى وإن كانوا بعيدين عن الميول والأهواء ، وحتى إن كانوا من أصحاب الملكات التي وهبت القدرة على التمييز بين الغث والسمين ، فإن للذاكرة آماداً ليست بقادرة على تجاوزها .

ومن ثم فإن المتصفح لما كتبه كبار المؤرخين الإسلاميين — كالطبري والمسعودي والبلاذري والدينوري ، وابن الأثير وابن كثير وابن خلدون وغيرهم — ليعجب للدقة والتحري الصحيح الذي عالجوا به تاريخ الإسلام ، في معظم الأحايين ، بقدر ما يأسف على الإهمال والخلط ، الذي صحب كتاباتهم عن عصور ما قبل الإسلام[1] .

---

(١) أنظر : محمد مبروك نافع : تاريخ العرب – عصر ما قبل الإسلام – القاهرة ١٩٥٢ ص ٥–٦ ،
وكذا D.S. Margoliouth, Lectures on Arabic Historians, Calcutta, 1930.
وكذا J. Sauvaget, Historiens Arabes, Paris, 1946.

وهكذا كانت المبالغات — إن لم نقل الخرافات — التي أدخلها أهل الأغراض ، أو الطامعون ممن دخل الاسلام من يهود أو نصارى ، وبخاصة أولئك الذين كانت لهم ثقافة يهودية واسعة ، وفي نفس الوقت كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة ، ومركز ملحوظ بين المسلمين ، لأنهم — كما يقول ابن إسحاق — « أهل العلم الأول » ، ومن ثم فقد كان العرب يستفتونهم في بعض ما غمض عليهم ، فيفتونهم بما تعوده في كتبهم من المبالغة في ضخامة الأجسام وطول الأعمار ، وكانت التوراة — والتلمود من بعدها — تشتمل على كثير مما جاء في القرآن الكريم من وقائع وأحداث تتصل بالمصطفين الأخيار ، من أنبياء الله الكرام ، ولكن بإسهاب وتفصيل ، قد يغري في كثير من الأحوال عواطف العامة ، أكثر مما يرضي عقول العلماء[1] .

وهكذا بدأت الأساطير اليهودية تنتشر بين الناس ، ويصدقها ضعاف المؤرخين ، فالقرآن الكريم — على سبيل المثال — لما ذكر عاداً ، فإنه قال « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد »[2] ، فأدخل المفسرون والمؤرخون في شرح هاتين الآيتين الكريمتين مبالغات ، رواها كعب الأحبار ووهب بن منبة ، وغيرهما .

ومن ثم فقد وصل إلينا من أخبارها أن رجالها كانوا طوالاً كالنخل ، لم يكن للطبيعة تأثير على أبدانهم لغلظتها ومتانتها ، وأن عاداً إنما تزوج من ألف امرأة ، وعاش ألف سنة ومائتي سنة ، ثم مات بعد أن رأى من صلبه أربعة آلاف ولد ، كما رأى كذلك البطن العاشر من أعقابه ، وكان المُلْك من بعده في الأكبر من ولده — وهو شديد — الذي حكم ٨٥٠ سنة ، ثم جاء من بعده أخوه « شداد » ، حيث

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩–٤٤٠ تفسير الطبري ٦/٩–١٠ ، ١٠/١٧ ، ٣١/٢٧ ، تفسير ابن كثير ١٠٢/٣ ، معجم الأدباء ٨/١٨ .

(٢) سورة الفجر : آية ٦–٧ ، وانظر : تفسير الطبري ١٧٥/٣٠–١٧٨ (طبعة الحلبي ، القاهرة ١٩٥٤) ، تفسير الفخر الرازي ١٦٦/٣١–١٦٩ ، تفسير القرطبي ٤٤/٢٠–٤٧ (دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٠) ، تفسير البيضاوي ٥٥٧/٢ (طبعة الحلبي ، القاهرة ١٩٦٨) .

حكم ٩٥٠ سنة ، سيطر فيها على كل ممالك العالم[1] ، وبنى مدينة « إرم ذات العماد[2] » .

ثم زاد الأمر صعوبة بالنسبة للمؤرخين الإسلاميين في تدوين تاريخهم ، أن الخط العربي لم يكن في أول أمره منقوطاً ، وأن أول من فعل ذلك ، إنما كان « أبو الأسود الدؤلي » ؛ بإرشاد من الإمام علي — كرم الله وجهه ، ورضي الله عنه وأرضاه — أو نصر بن عاصم بمشورة من الحجاج الثقفي[3] ، والأمر كذلك بالنسبة إلى الكتابة النبطية التي يرجح أن الخط العربي مشتق منها ، ومتطور عنها[4] ، إذ كانت هي

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٧٣ ، ١٢/٢–١٣ ، جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ١٩٢٢ ، ٦٥/٣ ، ثم قارن : المقدسي : كتاب البدء والتأريخ ، ٣٧/٣ ، تفسير روح المعاني ١٢٣/٣٠ ، تفسير الطبري ١٧٦/٣٠ ، تفسير القرطبي ٤٤/٢٠–٤٦

(٢) عن مدينة إرم ذات العماد : أنظر : كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » ، تاريخ ابن خلدون ١٩/٢–٢٠ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٥/٣–١٦ ، ياقوت ١٥٥/١–١٥٧ ، مروج الذهب ١٣/٢ ، ٤١٠–٤١١ ، تفسير الفخر الرازي ١٦٧/٣١ ، تفسير القرطبي ٤٦/٢٠–٤٧ ، تفسير روح المعاني ١٢٣/٣٠ ، البكري ١٤٠/١ ، ٤٠٨/٢–٤٠٩ ، طبقات ابن سعد ١٩/١ ، محمود أبو ريه : أضواء على السنة المحمدية ص ١٥٨–١٥٩ جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٦٤–٦٦ ، الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٨٠ ، الإكليل ٣٣/٨ ، عصر ما قبل الإسلام ص ٣٤–٣٥ ، وكذا EI, I, P. 121. وكذا BASOR, 73, 1939, P. 13

(٣) عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ٦٨ ، ٧٣ ، أبو أحمد العسكري : شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، القاهرة ١٩٦٣ ص ١٣ ، القفطي : إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القاهرة ١٩٥٠ ١/٤–٥ ، ٣٤٣/٣–٣٤٤ ، أبو عمرو الداني : المحكم في نقط المصاحف ، دمشق ١٩٦٠ ص ٣–٤ ، ثم قارن : حفني ناصف : حياة اللغة العربية ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٦٧–٧٠ ، حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ٤٦٧/١ ، حيث أن هناك إتجاهاً إلى أن النقط والإعجام لم يكونا بدعاً في العصر الأموي ، والظاهر أنهما موضوعان مع الحروف ، وأن هناك بردية ترجع إلى عام ٢٢هـ (أيام الفاروق رضي الله عنه وأرضاه) مكتوبة باللغتين العربية واليونانية ، وأن بعض حروفها منقوط منقوط معجم ، فضلا عن نقش وجد في الطائف ، ويرجع إلى عام ٥٨هـ (أي الى أيام معاوية بن أبي سفيان) وأكثر حروفه التي تحتاج إلى نقط منقوطة معجمة (أنظر : تاريخ القرآن ص ٧١–٧٢ ، مصادر الشعر الجاهلي ص ٤٠) .

(٤) عن تطور الخط العربي عن الخط النبطي ، أنظر : مقالنا : « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، الرياض ١٩٧٦ ص ٣١٥ ، فيليب حتي : تاريخ العرب ، الجزء الأول ص ١٨–١٩ ، جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام ص ٨١ ، عباس =

الأخرى لا تعرف النقط والإعجام[1] ، وقد أدى ذلك كله إلى التباس غير قليل في قراءة الأسماء[2] .

على أن التفسير التقليدي لإهمال التاريخ العربي القديم وعدم تدوينه ، هو أن الإسلام قد اتجه إلى استئصال كل ما يمت إلى الوثنية في بلاد العرب بصلة ، اعتماداً على الحديث الشريف « الإسلام يهدم ما قبله » ، ومن ثم فقد انصرف العلماء عن الدراسات المتصلة بالجاهلية ، مما أدى آخر الأمر إلى ضياع الكثير من أخبارها ، وبالتالي نسيانها ، وإلى ابتداء التاريخ عند المسلمين بعام الفيل[3] .

وإني لأظن — وليس كل الظن إثماً — أن أصحاب هذا الرأي قد جانبهم الصواب إلى حد كبير ، فالحديث الشريف إنما كان رداً على أسئلة بعض الصحابة — رضوان الله عليهم — عما ارتكبوه في جاهليتهم ، مما لا يتفق وشرائع الإسلام ، أو بالأحرى كان رداً على « عمرو بن العاص » ، حين اشترط قبل مبايعته سيدنا ومولانا رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — أن يُغفر له ، فقال الحبيب المصطفى — صلوات الله وسلامه عليه — « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله[4] » .

= العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٣٦–١٣٧ ، عبد الرحمن الأنصاري : لمحات عن القبائل البائدة في الجزيرة العربية ص ٨٩ ، ناصر النقشبندي ، منشأ الخط العربي وتطوره لغاية عهد الخلفاء الراشدين ، مجلة سومر ، ١٩٤٧ ص ١٢٩ : وكذا

M. Sprenling, The Alphabet, its Rise and Development from the Sinai Inscriptions, Chicago, 1931, P. 52.

EB, I, P, 684

وكذا

وكذا Nabia Abbot, The Rise of the North Arabic Script. , P 2.

ثم قارن : عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ٦١–٦٣ ، ديتلف نلسن : التاريخ العربي القديم ص ٤٠–٤١ .

(١) خليل يحيى نامي : أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الأول ، مايو ١٩٣٥ ، ص ٨٧ .

(٢) أنظر أمثلة في : جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص ١٦ .

(٣) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١/١٠٨–١١١ ، مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب ص ٥٣ ، فؤاد حسنين : التاريخ العربي القديم ص ٢٤٦–٢٤٧ .

(٤) صحيح مسلم ١/٧٨ (باب كون الإسلام يهدم ما قبله ، وكذا الهجرة والحج) .

وهكذا يبدو بوضوح — لا لبْس فيه ولا غموض — أنه ليست هناك صلة بين الحديث الشريف ، الذي يدعو إلى أن « الإسلام يهدم ما كان قبله » ، وبين إهمال التاريخ العربي القديم ، بصورة لم يهمل بها أي تاريخ آخر ، من تواريخ الأمم ، التي كتب لها أن تعتنق الإسلام ، وتؤمن بالقرآن ، وتشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

ثم إذا كان أصحاب هذا الرأي على صواب فيما يقولون ، فمن أين إذن جاء « ابن الكلبي » بمادة كتابه « الأصنام » بل كيف يتفق ذلك ، والقرآن الكريم قد تعرض لحياة العرب في جاهليتهم ، من نواحيها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، فالقرآن الكريم يتعرض لذكر بعض المعبودات الوثنية ، حيث يقول سبحانه وتعالى « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولاسواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا »[1] ، وحين يقول « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون »[2] ، ويقول « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزي »[3] ، هذا فضلاً عن أن القرآن الكريم إنما يشير إلى أن ملكة سبأ وقومها ، إنما كانوا «يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون »[4] .

---

(١) سورة نوح : آية ٢٣ وانظر : تفسير الطبرسي ٢٩/٦٩–٧٣ ، تفسير الطبري ٢٩/٩٨–١٠٠ ، تفسير ابن كثير ٧/١٢٦–١٢٨ ، تفسير أبي السعود ٥/١٩٨ ، في ظلال القرآن ٢٩/٣٧١٦ ، تفسير القرطبي ١٨/٣٠٧–٣١٠ ، تفسير الكشاف ٤/١٦٤–١٦٥ ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/٢٦٩–٢٦٠ .

(٢) سورة فصلت : آية ٣٧ ، وانظر : تفسير روح المعاني ٢/١٢٥–١٢٦ ، تفسير النسفي ٤/٣٣–٣٤ ، تفسير ابن كثير ٦/١٧٨–١٧٩ ، تفسير أبي السعود ٤/٢٨٢ ، تفسير القرطبي ١٥/ ٣٦٣–٣٦٥ ، الكشاف ٣/٤٥٤ ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٥/٢٩٥–٢٩٦ ، تفسير البيضاوي ٢/٣٤٩ ، تفسير الطبرسي ٢٤/٢٣–٢٦ ، تفسير الطبري ٢٤/١٢١ ، في ظلال القرآن ٢٣/٣٠٠٤–٣٠١٢ .

(٣) سورة النجم : آية ١٩–٢٢ وانظر : تفسير البيضاوي ٢/٤٣٠ ، تفسير الطبري ٢٧/٥٨–٦٢ ، تفسير الطبرسي ٢٧/٤٤–٥١ ، تفسير روح المعاني ٢٧/٥٤–٥٨ .

(٤) أنظر القصة كاملة في سورة النمل : آية ٢٠–٤٤ ، تفسير الطبري ٢٩/١٤٣–١٧٠ ، تفسير القرطبي ١٣/١٧٦–٢١٣ ، الكشاف ٣/١٤٢–١٥١ ، تفسير روح المعاني ١٩/١٨٢–٢١٠ ، =

هذا إلى جانب ذكر القرآن لحياة العرب في الجاهلية ومثلهم ، وما كانوا يقومون به — ولو شراً باطلاً — فضلاً عما في كتب التفسير والحديث والسير والأخبار ، من أوصاف لبعض أصنام الجاهلية وهيآتها وشكل محجاتها وأوقات الحج إليها[1] ، ثم ألم يتعرض الإسلام إلى عرف العرب وتقاليدهم في الجاهلية ، فأقر بعضاً ، وأنكر بعضاً ، وعدّل بعضاً[2] .

ثم ألم يكن للصديق — رضي الله عنه وأرضاه — علم بأنساب كل قبيلة ، ومحامد السابقين منها ومسالبهم ، ولا سيما قريش ومن جاورها ، ولهذا كانوا يقولون كلما سمعوا أبياتاً من الشعراء المسلمين يردون بها الهجاء على المشركين « هذا تلقين ابن أبي قحافة » ، لأنه كان في هذا العلم بين قريش عامة بغير نظير .

ثم ألم يكن الفاروق — رضي الله عنه وأرضاه — من العالمين بالشعر ، والحافظين له ، البصيرين به ، ثم أليس عمر هو القائل « عليكم بديوانكم لا تضلوا ، قالوا : وما ديواننا ، قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ، ومعاني كلامكم[3] » .

ثم ألم يحدثنا عكرمة عن ابن عباس — رضي الله عنه — أنه ما فسر آية إلا نزع فيها بيتاً من الشعر ، وأنه كان حريصاً على الشعر الجاهلي ، وأنه كان يحث الناس على تعلمه وطلبه لتفسير القرآن الكريم ، وأنه كان يقول : « إذا سألتم عن شيء من غريب القرآن ، فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب »[4] .

وهكذا يمكننا القول أن الإسلام لو تعمد طمس الجاهلية ، والقضاء على معالمها ، لما أشار القرآن الكريم إليها ، ولتحرج المسلمون من الإشارة إليها كذلك .

تفسير الطبرسي ١٩/٢٠٨–٢٣٠ ، تفسير ابن كثير ٣/٣٦٠–٣٦٦ ، في ظلال القرآن ١٩/ ٢٦٣١–٢٦٤٣ ، تفسير أبي السعود ٤/١٢٧–١٣٤ ، تاريخ الطبري ١/٤٨٩–٤٩٥ ، ابن الأثير ١/٢٣٤–٢٣٨ ، ابن كثير ٢/١٨–٢٤ .

(١) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١/١١٤ .

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٢٧ (بيروت ١٩٦٩) .

(٣) العقد الفريد ٦/٩٣ ، الأغاني ٨/١٩٩ ، ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/٩٣ ، ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ص ١٥٢ .

(٤) السيوطي : المزهر في علوم اللغة ٢/٣٠٢ ، ناصر الدين الأسد : المرجع السابق ص ١٥٢–١٥٣ .

ثم إن الأمر — فيما يبدو لي — لو كان بسبب الإسلام ، لما اقتصر على بلاد العرب ، وإنما كان يجب أن يتعداه إلى البلاد الإسلامية جمعاء — إلى مصر وسورية والعراق وغيرها — ولرأينا في هذه الحالة طمساً لتاريخ مصر على أيام الفراعين ، ولتاريخ العراق على أيام السومريين والأكديين والآشوريين والبابليين ، والأمر كذلك بالنسبة إلى تاريخ الأموريين والكنعانيين والفينيقيين والأراميين وغيرهم في سورية ، ولكن الواقع غير ذلك تماماً ، فتاريخ مصر — على سبيل المثال — أوضح من تاريخ العرب بكثير .

إذن ، لا بد وأن تكون هناك أسباب أخرى ، لطمس هذا التاريخ العربي القديم ، والرأي عندي أن السبب إنما يكمن أولاً في الجاهليين أنفسهم ، لقد كان القوم — في معظمهم — أميين ، لا يكتبون على الأقل في العصور القريبة من الإسلام ، حتى أننا لا نجد في مكة عشية ظهور الإسلام ، إلا بضعة عشر نفراً يقرأون ويكتبون ، حددهم « البلاذري » بسبعة عشر ، فضلاً عن فئة قليلة من الأوس ، إلى جانب قلة نادرة من النساء ، منهن « الشفاء بنت عبدالله البدرية » — من رهط عمر بن الخطاب — وهي التي علمت أم المؤمنين حفصة بنت عمر الكتابة[1] .

وأخيراً فإليك الحديث الشريف « إنا امة أمية لا تكتب ولا تحسب[2] » .

وهكذا كانت الأمية هي الصفة الغالبة على العرب عشية ظهور الإسلام ، حتى وإن كان الحديث الشريف — كما أراد البعض أن يفسره — لا ينفي الكتابة والحساب نفياً شاملاً ، لأنه جاء في حديث الصيام ورؤية الهلال ، وهو في نصه الكامل « إنا امة أمية لا تكتب ولا تحسب الشهر هكذا وهكذا » ، وإنما ينفي الحديث

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ٣/٥٨٠–٥٨٣ ، العقد الفريد ٣/٢٤٢ ، الجاحظ : الحيوان ٢/٧١ ، ناصر الدين الأسد : المرجع السابق ص ٤٥–٤٦ عبد العزيز سالم : دراسات في تاريخ العرب ١/١٩ ، وانظر : محمد عبدالله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٣٩–١٤١ ، تاريخ القرآن ص ٤٥–٥٣ ، ص ٦٦–٧٦ .

(٢) صحيح البخاري ٤/١٠٨–١٠٩ (كتاب الصوم ، باب ١٣) ، ورواه كذلك مسلم وأبو داود والنسائي ، كما في الجامع الصغير للسيوطي رقم ٢٥٢١ ، وانظر : تفسير الطبري ٢/٢٥٧–٢٥٩ ، تفسير روح المعاني ٩/٧٩ .